زيد المبدع المسكون بالرهافة والوطن ..!

عاطف عواد

في مجموعته القصصية (المدفع الأصفر - الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠١) والتي كانت قد نشرت بعد أقل من سنة على وفاته.. كتب القاص الروائي الراحل زيد مطيع دماج ، ضمن قصصها السبع، قصة (الهيلوكس)..

وفي هذه القصة القصيرة أجدني ، بحق، كلما قرأتها كأنني أمام زيد الانسان العربي المفعم إنسانية ومحبة لبلده ووطنه، أرضاً وإنساناً وتاريخاً مضيئاً.. يتجسد لي زيد مطيع بأحاسيسه التي عرفتها رفيعة ومرهفة.. تلك التي ربما تفرد بها، والقادرة على النفاذ بصدق إلى أوجاع الآخرين وآلامهم ،والمشاركة العميقة غير المفتعلة لهم.. حتى أن أصدقاء زيد كانوا قد عرفوه يتحرق ألما وشفافية لحوادث تلّم بمن عرف أو سمع ،فحاولوا- في شبه اتفاق -أن يلزموا الصمت ،أو يغيروا من حديثهم عن هذا الصديق أو ذاك الصاحب أو ذلك الشخص، والذي قد دهمته الفواجع، إن بدا عليهم زيد في المقيل أوسأل عن الصديق الذي تأخر عن صحبة مقيلهم.. كانوا إشفاقا على زيد المرهف الحساس، يعملون قدر الإمكان على إبعاده عن الألم الذي بالطبع لم يكن يبوح به، وإنما يلحظه الأهل والأصدقاء والأصحاب على قسماته.. هكذا، يتراءى لي زيد، وأتذكره وهكذا وربما لشيء لا أتبينه، تجيئني خواطر جمّة حينما أقرأ قصة (الهيلوكس) والتي كان قد أقرأني هو إياها منذ فراغه رحمه الله من كتابتها.

وللحقيقة ، وأنا لست من رجال النقد الأدبي، أردت وأرجو المعذرة - أن أبث معكم خواطري عن الصديق الذي افتقدته ،ومن خلال ذلك العمل (الهيلوكس) والذي لايقل عن إبداعات زيد الأخرى والكثيرة العميقة الصدق والواقعية والحياة..!

يلفتني في قصة (الهيلوكس) أنها لاتعالج حدثا، أو تدل على واقعة في بلد بعينه.. أبدا ولايمكن لقارئها أن يقول أن هذا العمل له رائحة وحصرية ذلك البلد، أو هذا على الإطلاق..فكأنما هي فتحة عدسة آلة تصوير (كاميرا) لالتقاط صورة، وتلك الصورة /القصة/ اللقطة هي مصر ،هي سوريا، هي اليمن، هي الجزائر، تونس الكويت ..الخ.

هي الإنسان العربي في أي بقعة من بقاع العرب.. وفي ذات الوقت لايخطئ قارئ تلك القصة /الصورة/ الإلتقاطة في التعرف على لحظتها التاريخية.. والتي كان زيد قد أشار اليها دون قصد بالطبع في نهاية هذا العمل الابداعي كتب: ١٨/٣/١٩٩٣م.. أي بداية العقد الأخير من القرن الذي مضى.. ذلك

العقد الذي تجلت فيه بشكل مؤلم وموجع كل نتائج المقدمات التي تفاعلت علينا وفينا ككرة الثلج المنزلقة إلى هوّة سحيقة تجرنا بهمجية، وبما يليق ببلهاء يتصرفون بفوضوية ولايتحسبون لعواقب أفعالهم فصرنا جميعا أعداء.. لاحق العربي العربي.. طارد العربي العربي.. كمن العربي للعربي.. تصيد العربي مستعينا بعدوهما ،لأخيه العربي وطاح الانتقام بين العرب، وسالت الدماء والعداوات والظن الذي صار كله (وليس بعضه) بيننا نحن العرب إثما يستوجب الانتقام.. هكذا كنا- ومازلنا نحن العرب- في التسعينات من القرن الذي استقبلنا خلفه بعداوة بيننا ألد وأنكى.. وهذا كان ومازال هو حالنا الذي أنعم الله على كاتب الهيلوكس إذا جازلي هذا القول أن جنبه وأكرمه وفي الموت إنعام وكرم إن كان الحال على أمة هو ماعليه الآن أمتنا ، وواقعنا الذي رصده زيد بما فيه من هلع ورعب وحالة المطاردة والإزهاق التي ابتلينا بها، وسادت على أرض العرب،، قال زيد في قصته الهيلوكس: «قدت سيارتي عائدا إلى المنزل كالعادة .. كنت مجهدا إثر انتهائي من عملي المعتاد حاولت سماع موسيقى لعزف منفرد على العود لأغاني من التراث المحبب إلى نفسي من مسجل السيارة.. لا أدري لماذا أوقفت المسجل على غير عادتي ..ونظرت إلى أرصفة الشارع من الجانبين، المارة والجالسين وسائقي السيارات المحاذين لي من اليمين واليسار مأزومون، قلقون ،محبطون،،يمشون كأنهم في فيلم صامت توقف فجأة..!

كانت مدينتنا تعيش حالة من الفزع والرعب لتكرر عمليات الاغتيالات وموجة عارمة من التفجيرات المدوية.. كنت خائفا من أن أصطدم بأي سيارة عن يميني أو يساري..سمعت أزيزا حادا لمحرك سيارة من خلفي تتبعني كيف أستطيع إفساح الطريق لها في هذا الزحام الشديد وسيارتي بين (كماشة) من السيارات على اليمين وعلى اليسار ! ربما يكون السائق متعجلا لإسعاف مريض أو موت قريب له !

نظرت في المرآة العاكسة.. إنها سيارة (الهيلوكس) المرعبة.. أسرعت نحو أول شارع أتجه فيه إلى منزلي ..مازالت تتبعني ..أقف أمام إشارة مرورية حمراء كانت ورائي أنزلق من شارع رئيسي إلى شارع فرعي بسرعة.. كانت أيضا ورائي.. اتجهت بسرعة جنونية نحو الشارع الرئيسي الأخير المتجه إلى منزلي وسيارة الهيلوكس ورائي مازالت ورائي!!

كانت الإشارة المرورية حمراء.. صممت علي اجتيازها مخاطرا حتى لو اصطدمت بسيارة أخرى أو سجل عسكري المرور مخالفة جسيمة ! فعلتها وزعقت صفارته..لايهم مادمت قد تخلصت من متابعة سيارة (الهيلوكس) المرعبة نظرت في المرآة العاكسة كانت سيارة الهيلوكس بعدي تكاد أن تصطدم بسيارات قادمة من الاتجاه المعاكس فزعت أكثر أصابني الخوف والهلع.. دخلت مسرعا إلى شارع فرعي.. كانت ورائي اتجهت إلى شارع ضيق منزلي فيه .. كانت لاتزال ورائي!! شممت رائحة الموت في أنفي.. أوقفت سيارتي أمام باب المنزل وخرجت منها مسرعا رغم إرتعاشة ساقي المنهكتين.. أدق الباب بعنف وأصيح بصوت مبحوح دون جدوى!! رجعت بظهري إلى الباب.. رفعت كلتا يدي مستسلما لاهثا.. نزلوا من سيارة (الهيلوكس) واتجهوا نحوي.. أنزلت يدي وأغمضت عيني منتظرا زخات من الرصاص يمطروني على جسدي من أسلحتهم الآلية..

-يادكتور رجاء اسمعنا مالك هكذا مرعوب؟! وضع (أحدهم) يده على كتفي وهزني بلطف أين تذهب بهذه التحاليل يادكتور ؟»

بقي أن أشير في عجالة إلى بعض الاشارات والرموز التي جاءت في قصة زيد مطيع هذه:

فمثلا ساد في منطقتنا العربية كلها ،أن تستعمل سيارات مثل التي ذكرها الكاتب، وايضا الدراجات النارية ،في حالات الاغتيالات والتصفية التي صارت ظاهرة أخافت الجميع من أقصى الوطن العربي إلى أقصاه.. أيضا هذه الحالة التي عاشها الانسان العربي وربما مازال، كانت قد أضفت حالة من انعدام الأمن والأمان والطمأنينة التي هكذا انزرعت بين أبناء الأمة.. الأمر الذي جعل الإنسان العادي المواطن الذي كان قد ناضل طويلا ضد مستعمر محتل وطاغ كي يعيش حياته مشبعا بحالة الأمن وكان كما ذكر الكاتب الراوي «أقف أمام إشارة مرورية حمراء»..

قد أوصلته حالة الاضطراب والخوف التي صُنعت عمدا كي يصل بنا الأمر إلى «كانت الإشارة المرورية حمراء ..صممت على اجتيازها مخاطرا حتى لو اصطدمت بسيارة اخرى أو سجل عكسري المرور مخالفة جسيمة» ولم يفلح الانسان العربي من الاستنجاد بماضيه المضيء بما يستطيع به من تراثه وتاريخه الحضاري، مايعينه على تخطي واجتياز هذه الحالة المرعبة التي وجدت العرب أنفسهم فيها، ويقول الكاتب: «نظرت في المرآة العاكسة» واللحظة التاريخية لحظة ضبابية ..اختلط فيها كل شيء بكل شيء..فقط صار الخوف والإزهاق هو عنوانها ..اخترت كل تيارات الوطن السياسية والدينية تترصد بعضها.. وهذا ما أقرأه في هذه القصة والعبارات «المحاذون لي من اليمين واليسار مأزومون ،قلقون؟ محبطون..»«من علي يميني يصيح بألفاظ نابية على من في يساري ..وكل يتهم الآخر بأنه السبب..!»

وعلى الرغم من أن بطل القصة ، هذا الطبيب المحب لعمله وأسرته والذي لايشغله شيء غيرهما ،لاهو من التيارات المتصارعة في هذا العالم العربي لكن محاولته تذكير نفسه بذلك لاتزيل عنه حالة الرعب هذه التي تملكتنا يقول الراوي «لا داعي لهذا الفزع والرعب فأنا لست شخصية هامة شعرت بالأمان بأنني لايمكن أن أكون مستهدفا ..هكذا طمأنت نفسي » وكم ارتحت لذلك.. لكن السيارة (الهيلوكس) مازالت ورائي تتبعني..

إنها الأحاسيس التي تشربها الكاتب الراحل المبدع زيد مطيع دماج أحاسيس ابن وطنه وأمته .. أحاسيس بالتأكيد حينما عاشت لحظة ميلاد إبداعها ككل مبدع أصيل صادق ، بالتأكيد لم يكن يعي بشكل تصنّعي وضع تلك الكلمات والعبارات ، الصور التي خرجت قصة ،قصة واحدة من قصص وإبداعات الصديق الراحل زيد مطيع..فقط هي خواطر لقصة الهيلوكس.

«دملان» شهادة ورواية

■،، وصلتني رواية «دملان» للكاتب الشاعر حبيب عبدالرب سروري عن طريق صديق في الجزء الأول منها. وبالرغم انشغالاتي حدّ القطيعة بالشعر دون الرواية، علاوة على أني لا أجيد الكتابة في الأعمال الروائية من حيث التقييم، مثلما أجيد ذلك في الشعر.

لكن ومع ذلك فامتلاكي المنهج بحكم دراستي الأكاديمية يسهل مذللاً الطريق أمامي لتقييم أي عمل إنساني له علاقة بالإبداع العلمي والأدبي والفني وما ينحو هذا النحو. والمنهج (كما نعلم) مناهج. أقول ذلك لا بقصد (بادعائي امتلاك المنهج) التوضيح للقارئ أن مثل المنهج البنيوي، أو الكارثي، أو التفكيكي، أو النقدي، أو السيكولوجي، أو العلمي أو.. الخ أمتلكها قصراً دون الآخرين. فاستخدام واحد من هذه المناهج من البساطة بمكان بحيث يستطيع أي كاتب، أو طالب جامعي استخدامها في دراسة نص شعري كان أو روائي، أو في تحليل ظاهرة علمية أو أدبية أو اجتماعية.. الخ، ولا ميزة في ذلك بين من يكتب مستخدماً منهجاً معيناً في دراسة نص ما، وبين من يكتب دون أن يستخدم على نحو القصدية منهجاً بعينه إلا في الكيفية من حيث اللغة الواصفة إذ أن هذا الأخير (أي الذي يكتب دون منهج) يكتب أصلاً بمنهج ما، وإن كان ولابد فبعدة مناهج (منهج تكاملي) سواء أدرك ذلك أم لم يدرك. ويرجع تقدير ذلك إإى الناقد قطعاً. ولا أقصد بالناقد هنا كل هؤلاء الذين يسمون باسم النقاد في حين لا علاقة لهم بهذه التسمية إذ كما ان الشاعر كموهبة يخلق، فالناقد - كموهبة أولاً - يخلق كذلك، بدليل قلة الشعراء الاصلاء في تواز مع قلة النقاد عبر العصور. لعلني بهذه السطور السابقة أمهد، وقد مهدت لتحديد صاحب المنهج تعريفاً فهو المثقف الذي يطرح السؤال، أي المعرفة، أي هو الذي يجسد القانون التالي:

عبدالسلام الكبسي

إنسان (موهبة) + ثقافة + وقت = معرفة

أكتفي بما قدمته هنا إذ لا مجال للاستطراد على الرغم من أهمية الموضوع، ولا أدري لماذا انسقت خارجاً عما أنا بصدد الحديث عنه فقد قرأت «دملان» رواية حبيب عبدالرب سروري قراءة مشتتة، ومستعجلة ربما لأن بعض الأفكار التي كان يحاول طرحها المؤلف متجاوزة الآن خصوصاً في وجود البدائل لدى روائيين عرب كبار، وغربيين، وشرقيين، وأفارقة، لكن ومع ذلك فمن الظلم الحكم على هذا العمل الروائي «دملان» يمثل هذه السرعة خصوصاً وأن المؤلف لا يقصد أن ينافس الآخرين في الوقت الذي يقصد تقديم سيرة ذاتية شخصية له بأسلوب - من حيث اللغة - رشيق ما أمكن له ذلك، وإن لم يكن مشوقاً لا لاستخدامه الكثير من المفردات العامية (المحلية) بدءاً بالعنوان الرئيسي «دملان» عبر معالجته لقضايا: قلت متجاوزة كالحرمان الجنسي، وزيف الشعارات التي كان يحملها البطل (بطل الرواية) كغيره من أبناء اليمن في مرحلة سواد «نظام سياسي اشتراكي علمي من العيار الثقيل، وإن كانت (كما يقول ناقداً) الاشتراكية العلمية بريئة جداً من مساوئ ذلك النظام القبلي الذي تآكلت قياداته الأهلية في مجازر وتصفيات لا أول لها ولا آخر» ص٥٠

أقول يحملها البطل (أي الشعارات) كشاهد حقيقي باعتباره ممن عاش ذلك الزمن في (عدن) لا كمواطن ساذج - كما هم الآخرون - خرج ضمن من خرج في تظاهرات مردداً في ثورة على الموضة من أجل الثورة الحمراء في الجنوب في ذلكم الوقت:

زرزر السروال وطول بشعره
ما درينا هو صبي أم صبية
مابنا «خنفس» ولا «شارلستون»
والجماهير تحمل البندقية
(ص٥٠)

أو كأن يتذكر أيضاً أغاني:

مكسب وراء مكسب إنجاز وراء انجاز
وأنت يا رجعي بانحرقك بالجاز (ص٥١)
وذلك ضد كل من يلبس العمامة والجوخ،

أو ماله علاقة بالإسلام من حيث المظهر (مظهر البطل نفسه وهو في لباس إمام المسجد وخطيبه).

وبالرغم من ذلك فالمؤلف يتذكر بلسانه، أو بلسان البطل تلك الأيام إزاء هذه الأيام فلا يجد إلا المرارة والحسرة: «كانت فترة صعبة جداً دون شك لكنها كانت تعج بالآمال والطموحات، كانت مع كل ذلك أحلى وأهون بكثير من فترة هذه الأيام التي نفتني بشكل مباشر في علبة سردين، أقصد فترة هذه الأيام التي جاء فيها بدو آخرون لا تثوير كل شيء أيضا. غير أن تثويرهم ليس عبر فرض شريعة «الثورة الحمراء»، مثل سلفهم بل عبر فرض شريعة «الثور الأسود» رمز عاداتهم القبلية وأعرافهم الآتية من ظلمات القرون السحيقة والتي صار الثور خاتم سليمانها بدلاً من الثورة، به وحده تنتهي كل الأحكام، تبدأ كل المشاريع، وتحل كل الخلافات والصراعات». ص٥١

ولا تعليق على ذلك بسوى الإعجاب بمثل هذا الطروح الناقد اللاذع دونما جرح، أو هتك عرض، أو إساءة كما وقع بعض الكتاب الذين يكتبون الرواية أو القصة في اليمن من حيث سقطوا ولم يسقط حبيب عبدالرب سروري فقد سما بلغة مهذبة، وسما بمصداقية لا نظير لها عند غيره من الكتاب اليمنيين في رؤيته، باستعادته الأحداث عبر ذاكرة كانت قد بلسمتها حياته الجديدة في فرنسا الأمر الذي معه كان فيه المؤلف أثناء كتابته روايته هادئاً هدوء المتفرج لا مازال - محترقاً - في الدائرة. بدليل استعماله للجاهز من التعابير التقليدية وخصوصاً أثناء حديثه عن المرأة ومرحلة الكبت بعد الارتواء والوصال إذ لم يعد الكاتب يعاني من تلك الرغبات التي لم تحقق حتى العقد الرابع من عمره (انظر ص٥٥) في الوقت الذي سينجح الكاتب حبيب عبدالرب سروري نجاحاً كبيراً في تصويره الكاريكاتوري لتلك اللحظات التي اقتنصها تذكراً من «سنة الخدمة العسكرية» (ص٦٩ - ٨٠) ولعل المؤلف حبيب عبدالرب سيفطن إلى موهبته بهذا الصدد (التصوير الكاريكاتوري) فيبني عليه، ويستطرد بعيداً عن الجاهز، والشائع حدّ الابتذال.

أخيراً أحيي حبيب عبدالرب سروري لأنه عالم، ولأنه شاعر، ولأنه بالإضافة إلى ذلك روائي وبـ«دملان» في الجزء الأول منها يكون قد شدنا، ويكون قد أمتعنا، ويكون قد دفعنا إلى كتابة هذه العجالة التي قصدنا أن نحييه فيها فخاننا ربما الأسلوب بنقدنا له ارتجالاً. ومع ذلك فتحية له.

رشفات!

عصر الجفاف

خلق الإنسان في أحسن تقويم، ومن معاني هذا الحُسن في التقويم إستعداده ليتذوق الجمال ، فالآية الكريمة تشير إلى أن الإنسان جميل في شكله، على درجة رائعة من التنسيق الموقع، فهو «ذو تكوين عقلي فريد، كما هو ذو تكوين روحي عجيب» -بحسب "الظلال"- والآية تفيض بعطاء غير محدودٍ من الجمال المطلق البديع !!

وقد تبخل الطبيعة هنا أو هناك ببعض مظاهر الجمال، فيصبح الإنسان غليظ الذوق سيّء الطبع، وبليد الحس، غير أنه لن يعدم الشعور بالجمال مطلقاً، وهذا من لطف الله فيه، ليظل يكتسب خصيصة الجنس، فالسماء بنجومها اللألاءة وقمرها المنير، والطقس بنسيمه الناعم الهبوب، والشمس بشروقها البديع، وغروبها الهامس ، والمرأة بجمالها السّاحر وصوتها الموسيقي العذب ، والأطفال ببراءتهم التلقائية، والشباب بأفعالهم المتصابية الجسور، كل ذلك يحول دون أن يصبح الإنسان أسداً هصوراً ،وذئباً فجاً، وجداراً صلداً..

وثقافتنا الدينية ملأى بالإشارات والعلاقات التي تكره إلينا «التّبدّى» باعتبار البداوة غالباً من لوازم الجفاف والجفاء، فالأعراب أشد كفراً ونفاقاً ..

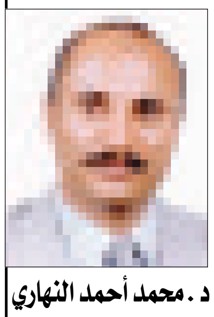

د . محمد أحمد النهاري

والجاحظ ينبوع ثقافتنا الثرة، يستبعد أن تكون هناك حضارة في منطقة لا يوجد فيها نهر أو جداول..

إن الذوق الجميل والشعور بالجمال لابد أن يصدر عن روافد للجمال، طبيعة غنية بالخضرة الموارة الوافرة الخصب، تمتع العين وتسلو الفؤاد، علاقات إنسانية حميمة، بعيدة عن التوجس والريبة ونوايا المصالح الدنيا، إحساس بمستقبل خال من القلق.. تربية وتعليم تنظم الحق والواجب.

أما المصدر الذي يخلق طبيعة متجددة، وجمالاً لا ينضب، ويصنع ذوقاً رفيعاً مرهفاً، فهو الشعر، هذا الكائن السحري الذي يحيل الجدب إلى خصب، والجفاف إلى لين ونعومة، والبلادة إلى إحساس متقد، والعواطف النائمة إلى عواطف يقظى، والقلوب الواجمة إلى مشاعر دفاقة بالحياة المعطاء.

وعندما لا يهب الله وطناً شاعراً أو شعراء ،يكون ذلك عقاباً تفرضه السماء ، جزاء كفر النعمة والتفريط بفريضة مكتوبة.. فالشاعر طبيعة مترامية الجمال، لا تنفد، فلقد يهب الله نهراً أو ينبوعاً، تستأثر به رقعة من الأرض داخل الوطن الكبير ، أما الشاعر فهو النهر الذي يسري في كل مكان، رقراقاً يمنع الجفاف ويحول دون الهمجية والتوحش.

وقد وهب الله اليمن كثيراً من الشعراء ،مثل أبي الأحرار الزبيري الذي لايزال يمنح كل يمني مقاومة عنيفة ضد التصحر والعبودية وأنانية القادرين والاستئثار بالقرار.. ولم يعلم جيل بأكمله، وربما غفل جيل بأكمله عن اسم هذه الطبيعة الجذابة النضيرة وتذكّره يوم وفاته ويوم استشهاده، لأن هذه الأجيال تعنى بالمشهد ولا تعنى بالمنبْع.

ما أحوجنا إلى الإحساس بالجمال والوقوف على مجاليه، إننا نعيش عصر الجفاف وزحف الصحارى.